



## ساعدوهم على الهجرة ومنحوهم امتيازات أجنبية

# كيف مهد العثمانيون لإنشاء دولة الصهاينة على أرض فلسطين

من الموضوعات المثيرة للجدل في تاريخ الدولة العثمانية، موقفها من الحركة الصهيونية والاستيطان اليهودي في فلسطين؛ إذ دخل هذا الموضوع مجال الصراع الأيديولوجي من جانب بعض المؤرخين المختصين بتاريخ الدولة العثمانية، وأيضًا قطاعات كبيرة من كُتاب تيار الإسلام السياسي. ولم يُنظر إلى هذا الموضوع نظرة علمية مبنية على وقائع التاريخ والبرجماتية السياسية للدولة العثمانية، لا سيما في سنوات ضعفها.

ومن أهم الأمثلة على حساسية الموضوع في الكتابات التركية، ما كتبه المؤرخ التركي أحمد آق كوندز في هذا الشأن، ودفاعه عن موقف الدولة العثمانية من الاستيطان الصهيوني في فلسطين: "إن الحاقدين على الترك عامةً والدولة العثمانية خاصةً لا يملّون من قلب حقائق التاريخ... ومنها مواقف الدولة العثمانية في فلسطين. إذ يُلقي الذين يجهلون النظام القانوني والسياسي المُنفذ في أراضي فلسطين بثقل النواذب والكتابات التي أصابت العالم العربي على عاتق الدولة العثمانية".

### تسببت القرارات العثمانية في تمكُّ اليهود للأراضي، وتأسيس المعسكرات في القدس

وعلى العكس من ذلك فيرى الفريق الثاني المسؤولية المباشرة للدولة العثمانية، عن تزايد المستعمرات اليهودية في فلسطين؛ إذ أنشأت الدولة العثمانية متصرفية القدس المستقلة عن ولاية الشام. وتشمل هذه المتصرفية أفضية القدس ويافا وغزة والخليل وبيئر السبع، وأصبحت هذه المتصرفية تخضع مباشرة للحكومة المركزية في إسطنبول، وتتبع لوزارة الداخلية.

وساعدت على نشأة المستوطنات اليهودية في فلسطين العديد من العوامل التي لم تستطع الدولة العثمانية مواجهتها، بل عجزت في النهاية عن التصدي لها، وتغاضت أحيانًا عنها، لا سيما في سنوات ضعفها، ومن أهم تلك العوامل: الحرية التي تمتع بها اليهود من رعايا الدولة العثمانية في التنقل وامتلاك الأراضي بحكم كونهم رعية عثمانية.

وبالنسبة لليهود الأجانب، ساعد صدور فرمان عثماني في عام (1869) يسمح بتملك الأجانب للأراضي في الدولة العثمانية على سرعة تكوين المستوطنات اليهودية، كما دفعت بعض الأحداث الداخلية في روسيا واضطهاد اليهود بها، إلى موجة كبيرة من هجرة اليهود الروس إلى فلسطين لا سيما منذ عام (1881)، وتملكهم للأراضي في فلسطين.

وانتهى السلطان عبدالحميد الثاني إلى حركة المستوطنات اليهودية، وحاول أن يستثمر رغبة صهاينة اليهود الاستيطان في فلسطين. وخلال الفترة بين (1881-1888) تزايدت أعداد ومساحات المستوطنات اليهودية، وللأسف أصدر عبدالحميد الثاني عام (1881) فرمانًا للحد من إقامة اليهود في فلسطين لمدد طويلة، لكن الولايات المتحدة الأميركية لم تقتنع بالفرمان، ولا التوضيحات العثمانية التي أرسلتها الدولة العثمانية لأميركا، بأن الدافع وراء الفرمان العثماني الخشية من النزاع بين اليهود والعرب في فلسطين.

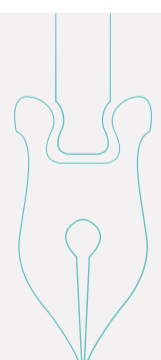
وطلبت أميركا من الدولة العثمانية ضرورة احترام الامتيازات الأجنبية، والسماح لليهود الأجانب بالاستقرار في فلسطين وتمكُّ الأراضي، وأدى ذلك إلى تراجع الدولة العثمانية عن قرارها السابق، والتصريح بأن الفرمان السابق لن يُطبَّق إلا بحق المهاجرين اليهود القادمين بأعداد كبيرة، وليس بحق الذين يأتون فرادى.

وتستنكر المؤرخة الأردنية فدوى نصيرات هذا الموقف من الدولة العثمانية وتقول: "هكذا استطاعت الدول الغربية في عام 1888 أن تحصل على تنازل من الباب العالي يسمح لليهود بالاستقرار في فلسطين بشرط أن يصلوا فرادى لا جماعات، وأدى ذلك إلى فشل الدولة في منع اليهود من الاستقرار في فلسطين".

والأكثر من ذلك، لجوء بعض صهاينة اليهود الأجانب إلى طلب الرعية العثمانية حتى يصبح لهم كافة الحقوق في فلسطين، ومن ذلك مذكرة مرفوعة من الصدر الأعظم العثماني إلى السلطان العثماني في عام (1891): "لقبول منح التبعية (الجنسية) العثمانية لأربعمئة يهودي في صفد و40 في حيفا قدموا إلى الديار الفلسطينية".

ويذكر التركي أحمد آق كوندز رفض السلطان لطلب الصدر الأعظم في مجال الدفاع عن موقف الدولة العثمانية من الاستيطان اليهودي، لكن الوثيقة في الوقت نفسه توضح التضارب بين مؤسسات الحكم العثماني في هذا الشأن، وأنه لم يكن هناك سياسة واحدة تجاه الأمر.

وهكذا أدى ضعف الدولة العثمانية، ونظام الامتيازات الأجنبية، وتدخل الدول الغربية إلى تزايد أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، والتوسع في إنشاء المستوطنات اليهودية. وحاول عبدالحميد الثاني أن يتلاعب بالأطماع الصهيونية مفاوئًا على الرغبة بتحصيل مكاسب كبرى، وفي الوقت نفسه متظاهرًا أمام الأمة الإسلامية والعرب تحديدًا بأنه حاول الدفاع عن فلسطين.



### المراجع:

- 1) فدوى نصيرات، دور السلطان عبدالحميد الثاني في تسهيل السيطرة الصهيونية على فلسطين (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2014).
- 2) إيرما فاديغا، اليهود في الإمبراطورية العثمانية، ترجمة أنور إبراهيم (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2021).
- 3) ستانفورد ج شو، يهود الدولة العثمانية والجمهورية التركية (القاهرة: دار البشير، 2015).
- 4) جعفر حسن، فرقة الدونمة بين اليهودية والإسلام، ط3 (بيروت: مؤسسة الفجر، 1988).
- 5) أحمد النعيمي، الأقلية اليهودية والدولة العثمانية (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1990).
- 6) إبراهيم العلاف، "دور الماسونية في الحياة الاجتماعية والسياسية التركية المعاصرة"، مجلة دراسات اجتماعية، بيت الحكمة، بغداد، العددان (3،4)، (1999-2000).
- 7) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتوك، الدولة العثمانية المجهولة (إسطنبول: وقف البحوث العثمانية، 2008).